
أحزان سقارة
ولى الدين
مكتبة غريب

أحزان سقارة

اسماعيل ولي الدين

أحزان سقارة

مكتبة غريب

الغلاف : بريشة الفنان
عفت حسنى

ـ ١ ـ

ما أشد بأس النهار عنـدما تكون دائرة الشمس فى منتصف السـماء ·· تصل أشعتها الحـارقة الى كل ركن ، كل خرم ، كل سطح أخضر أصفر ترابى ··

الرجـال منحنون دءوبون ، بعضهم يتحرك وراء بهيمتين ·· يسوط ظهريهما ، تغوص أسلحة المحرات داخـل الأرض الرمليـة ·· تبحث عن الجـوف ·· البهيمتان تتلويان ، تتسـاقط من خطاميهما الرغاوى البيضـاء فوق الأرض المنكوشة ·· الرجال معـذبون صارمون يتحركون فى خطوط كئيبة ·

تبـدو دور القرية من بعيـد ·· غارقة فى الكآبة والغبار والقنوط ، والحـارات والدروب سـاكنة الا

عندما يتحرك تاكسى النفر على الطريق الرئيسى الذى يربط القرية ببندر دهشور ·· الأولاد الصغار حليقو الرؤوس الا من كرة صغيرة فى بداية الرأس فوق الجبهة ·· يجرون وراء التاكسى ·· يعلو النفير على صراخهم ومزاحهم ·

التاكسى الذى يملكه « فتحى عبد الستار » ·· يعمل به على طريق سقارة البدرشين ·· النفر الواحد بعشرة قروش ·· يركب أحيانا أولاد ورجال فى التاكسى وفوقه ·· المشوار لا يستغرق أكثر من خمس عشرة دقيقة ·

انها ثروة لفتحى الذى لم يكمل تعليمه فى القرية التى انتشر فيها التعليم والتحصيل بعد ثورة يوليو ·· اشترى فتحى هذا التاكسى الجديد بعد أن باع تاكسيه القديم الذى استهلكه الطريق الترابى وزحام البشر داخله وحوله ·· أكملت له مبلغ التاكسى الجديد « أمنة » عشيقة مسنة يعرفها ، تسكن هناك فى دير الملاك خلف سوق السمك ·· والدة صديق تربى معه منذ الصغر ·· المرأة العجوز أغرمت صبابة بفتحى الذى اضطر ازاء مساعدتها له على شراء تاكسى جديد أن يكتب على نفسه بخط يده ورقة مسطورة تتضمن زواجا عرفيا بها ·

هل يدوم الحب طويلا ·· سخونته وحرارته ··· الجنة التى يشعر بها العاشق أو العاشقة ·· لم يكره فتحى هذه المرأة فى يوم من الأيام ·· اذا لم يكن يحبها فهو لا يكرهها أبدا ·· يجد راحته وملاذه عندها ··

المرأة عرفت كيف تغرى فتحى بملذات الحياة ·· امرأة موسرة تزوجت بناتها وذهب ابنها صديق فتحى الى الجندية ، دفعتها الوحدة وكآبة الأيام ·· ويجوز الهوى ·· الى التعلق بفتحى عبد الستار ·· وعن طريق النظرات المشبوبة واللمسات البدائية ·· تعلقت به وأعطته ما يريد من المال عند كل زيارة ·· وأصبح من المألوف أن يغيب فتحى عن منزل العائلة فى دير الملاك ، حيث ينام مع أخوين فى حجرة واحدة ·· وحيث لا يجد الرعاية الكاملة والحنان المشبوب ·

عرفت العائلة بعد فوات الوقت بغرام ابنهم وزواجه من تلك المرأة الموسرة التى تسكن بالقرب منهم ولكن لها سطوة ومقدرة ورثتها عن زوجها المرحوم ، سكتت العائلة على مضض ·· على أمل أن تفرق بينهما الأيام ·· وخاصة بعد أن هجر فتحى تاكسيه القديم وأجره الى سائق آخر يسكن فى الشوبك · والسبب أن فتحى يفضل العمل على طريق سقارة البدرشين ·· انهم أصلا من هناك ، ومازالت عندهم عدة أفدنة لا تزيد على أصابع اليد الواحدة مزروعة بالنخيل

ولكنها مؤجرة الى الفلاحين ·· وبالتالى لا يأخـذون منها الكثير ··

وبعـد أن اشترت المرأة الموسرة التاكسى الجـديد لفتحى ·· أصـبح يعمل هـو بنفسه عـلى الطـريق « سقارة البدرشين » ·· ينام الليل فى بيت دير الملاك أو فى بيتهم الريفى فى القرية الـذى مازالت تسـكنه عمتـه العجوز وجـدته التى لا تموت برغم مرضهـا الطويل منذ سنوات ·

مع مضى الأيام فتر الحب بينه وبين المرأة الموسرة التى لا تجد حرجا فى طلبه تليفونيا ··فهى الآن زوجته ولها حقوق عليه ··

وفى هـذه الأيام ·· حاولت عائلة فتحى عبـد الستار أن تزف ابنها الى قريبة له تسكن فى القرية ·· فتاة من أسرة فقيرة لم تكمل تعليمها ··

وقـد وافق فتحى أخيـرا ، وهو الشـاب الملىء بالحيوية ، الجميل المظهر ، الموردالخدين ، ذو الشارب الضخم الذى يملأ وجهه ، ويعطيه قوة وشبابا ونضارة

وافق فتحى حتى لا يغضب أباه وأمـه ·· وحتى تكون تلك الفتاة المتوسطة الجمال والفقيرة ماديا ··

شغالة فى منزل العـائلة ·· أما لأولاده وراعيـة لهم فى الكبر ·

والشمس تتحرك نحـو المغيب ·· دائرة قرمزية تسقط على الأرض ، نظرت «محاسن» من نافذة الدوار ·· عـلى الطـريق التـرابى القـادم من البدرشـين الصـاعد الى سوق الأربعـاء والى محل الأنتيـكات المنهوب أكثر محتوياتها من آثار سقارة وميت رهينة · ويملكه عم يعقوب ميخائيل ، لايقفل أبوابه حتى تنتهى عربات السياح ·

كانت « محاسن » قلقة هذا اليوم لتأخير « مسعود الجارحى » فى مصر ·· تأخر وصوله الى القرية ·· ها هى عربة فتحى عبـد الستار تقفـز على الطـريق الترابى ، تثيـر الزوابع حولهـا ·· وما عاد الأولاد يزفونها ، يجرون وراءها كعادتهم وقت الضحى ·

تأخر مسعود ·· ما الذى جعله يتلكأ ·· سيدخل الليل ·· وبعـد سـاعة زمن ·· سيذهب فتحى عبـد الستار الى البدرشين فى آخر قافلة مسافرة ولن يعود الا صـباح اليوم التـالى والأتوبيس الزراعى انتهى موعده منذ ساعة زمن ·

هل سيقضى مسعود الليل فى مصر ·· لم يقل لها ·· لقد نزل الفتى ليرى نتيجة امتحانه فى الجامعة··

هل رسبت يا مسعود ٠٠ اذن ستكون سنة شؤما على وعليك ٠٠ ولن يقبلك أبى وسيفرق بيننا الأهل ٠٠ بقيت لك سنة واحدة وتتخرج ٠٠ ماذا ستفعل ؟٠٠ لا يهم ٠٠ خوجة أو سكرتير أو موظف على الآلة الكاتبة ٠٠ المهم معك شهادة جامعية تسد عين الشمس وتفقع عيون العذال والحساد ٠٠ وأيضا عندك أرض يزرعها الفلاحون ولا تأخذ الا أقل القليل ، سبعة أمثال الضريبة ٠٠ ولكننا لا نريد الأرض٠٠سنتركها لاخوتك الصغار ٠٠ لكى يتربوا كما تربيت ، يبعدوا عنا فقط ٠٠ هم وأمك الست اللئيمة الخبيثة التى ما فتئت تضع بيننا العقبات والعوائق ٠٠ حتى أفسدت على أبى مزاجه وفرحه بك ٠٠ وأصبح قليل الاهتمام بك ٠٠ قال لى منذ يومين ٠٠ لو نجح ياستى سى مسعود بتاعك هيشتغل بكام ٠٠ عشرين برطوش غير انه هيدخل الجندية سنة سنتين أو حسب تدابير الرب ٠٠ أظنك هاتنتظريه » ياخية ده بعده ٠٠ الخطاب كتار واقفين على الباب » ٠٠

« ده انت بنت راجل مقامه كبير ٠٠ عنده أرض يزرعها بنفسه ٠٠ عشرة فدادين نخيل وسودانى وكمترى » ٠٠ لم أرد ٠٠ ماذا أقول ٠٠ ولكنك يامسعود تأخرت على ٠٠ لابد أن تعود ٠٠ لكى أفرح وتعود لى الابتسامة بنجاحك وانتقالك الى السنة الأخيرة من « المدعوقة » الجامعة ، ياريتك زرعت أرضك ٠٠ ولكن

السبب هو أبوك الذى ضيع الكثير من أرضكم بزواجه مرة ومرتين على أمك الست اللئيمـة أم هـانم ٠٠ لم يزرع أرضه بنفسه ٠٠ بل أجرها للفلاحين المساكين فى زمن مضى والذين لم يعودوا مساكين ٠٠ عندهم بهايم ونخيل وبلح ٠٠ يفلحون الأرض ويكسبون ٠٠ وأصحاب الأرض يتزوجون ويعيشون لمزاجهم وينقلبون فقراء ٠

ولكن أم هـانم ٠٠ ليست امرأة تعاشر ٠٠ ولولا انها ابنة عمه لطلقها ٠٠ الرجل له عـذره ٠٠ سمعت الكثيـر عن نزوات الرجل الطيب الجارحى ٠٠ والـد مسعود ٠٠ والذى افتكره الله منـذ سنوات ومسعود مازال طالبا فى المرحلة الثانوية ٠

وعنـدما هلت عربة « فتحى عبـد الستار » على الطريق الزراعى ٠٠ فى مشوارها الأخير ٠٠ شاورت محاسن لفتحى أن يمر على الدار عند عودته ٠

تسأله عن أخبـار مسعود ٠٠ وهل سيقضى الليل فى مصر ٠٠ عندهم أو عند أخته الكبيرة هانم المتزوجة من موظف بالجمعية الاستهلاكية ٠

ولكن لدهشتها ٠٠ قال لها فتحى ٠٠ وهو متعجل نشط على غير عادته : لقد عاد مسعود عند الظهيرة ٠٠ تجدينه الآن فى داره ٠٠

عاد ولم يمر على ‥ عاد ولم يسلم ‥ عاد ولم يسأل على من فى الدار ‥ لقد رسب لا محالة ‥ لو كانت النتيجة بالتوفيق لعاد منفوخ الوجه ، مبتسم الثغر ‥ يطلب يدى من أبى ‥ يقول : يا عم ‥ أريد ابنتك محاسن ‥ سنتزوج فى الصيف القادم ‥ سآخذها الى دارنا حتى تنتهى مدة تجنيدى الالزامية ‥ ولكنه عاد وقت الظهيرة ولم يرنى وجهه ولم يمر على أبى ، يرمى عليه السلام ، ويرمى لى المحبة والود ٠

وهبط الليل بأسراره وستائره ‥ والقلب حزين ‥ به قلق مدفون ‥ قلق لا يريد أن يصدق أن الآمال تحطمت ‥ سيصحو الصباح وتستيقظ الديكة ويعلو صوت المؤذن وسيكون يوم جديد ‥ وسيأتى ليعلن نجاحه ، بقوة لا تضارعها قوة سيطلب يدك من أبيك ‥ ولتدب الغيرة فى قلوب الحاسدين الشامتين ٠

- ٢ -

هناك عند الحوض الشرقى ٠٠ بعيدا عن الطريق الصاعد الى التلال ٠٠ بالقرب من حقل الزعفرانى نسيب مسعود الجارحى ٠٠ كشك من البوص ٠٠ فرشت أرضه بالحصير ٠٠ كشك يصلح لحراسة الغلال وثمار الخيار الأخضر الباهت المكور على نفسه المشهورة به قرية سقارة ٠٠ ويصلح كمزة خضراء فى ليالى المجون والسكر وقعدات المخدر التى تمتد حتى الفجر ٠٠ حتى يصحو الخلق ٠٠ كل الى عمله ٠٠ كل تلميذ خائب أو ناجح يأخذ دراجته الى محطة البدرشين ٠٠ يركب القطار ومنها الى مصر أم الدنيا ٠٠ هل هى حقيقة أم الدنيا حتى الآن ؟ أم أضاع الغلاء والزحام رونقها وبهجتها ٠

في ذلك الخص اجتمعت شلة الأحباء ٠٠ فى المسرات وفى النكبات ٠٠ فى الليالى الحلوة والليالى الفقيرة ٠٠ اجتمع « مسعود الجارحى » ذلك الفتى النحيف الذى يشغل نفسه الآن بتربية شارب نحيف ينمو بصعوبة ليملأ وجها أصفر قد زهد فى الحياة ٠

و « توفيق » خريج الزراعة المتوسطة والذى يعمل فى مؤسسة الدواجن ويأتى كل يوم الى القرية ٠٠ شاب فى الثلاثين ٠٠ ممتلىء ٠٠ منتفخ الوجه ، على وجهه شارب مضحك مثل شوارب الحلاقين فى الأربعينات ٠٠ طيب مضحك الشلة فى ليالى العربدة والمجون ، وجهه يمتلىء بالاحمرار والزهو يوما بعد يوم ٠٠ كأنه خلق فى الدنيا لا يفكر ولا يأمل ٠٠ خطب منذ شهور قريبة له فى المرازيق المشهورة بصخب وعنف رجالها ٠٠ واستعمالهم السكاكين والمسدسات المصنوعة محليا عند عم يعقوب بائع محل الأنتيكات ٠٠ هناك محله عند سوق الأربعاء ، بجوار تلال سقارة قبل الهرم المدرج ٠

فى السنة التى مضت ، مات سبعة شباب من خيرة أبناء المرازيق أثناء مشاجرة دموية بينهم وبين بندر البدرشين ٠٠ ولم يعلم البوليس حتى الآن السبب ٠٠ وعلقت القضية حتى يأخذ الثأر حقه ٠٠ فى السبعينات وقريبا من الثمانينات ٠٠ مازال الثأر وحق الدم ٠٠

والرجل الـذى يحمل كفنه على كفه ·· مازال هنـاك الكثير من الأجيال التى شبت بعـد الثورة ·· شـبوا أصحاء أقوياء فى زمن جديد متغير ·· ولكنهم لأجـل التقـاليد والعرف وأخـلاق القرية يذهبون للمـوت مضحين بأنفسهم ·

دخلوا الجامعة ومارسوا الحق والتعلم والحيـاة الحقـة ·· ولكن تشدهم أيضا تقـاليد الآباء ، تلوى أذرعتهم ، تكبل أقدامهم ، تعشش فى أفئـدتهم وترسم مستقبلهم ·

هذه هى قرية سقارة ·· قرية على بعد كيلومترات قليلة من القاهرة ·· ولكنها مازالت تعيش فى الماضى البعيد ·· تملؤها الأحزان ·· وتفرقها الدماء ·

ويبتسم « مسعود الجارحى » الفتى الذى صـدم فى امتحانه وفى آماله وفى تأخير زواجه من «محاسن» بنت الشـيخ نبوى ·· صـاحب العشرة فدادين التى يزرعها بنفسه ·· صاحب العقل المدبر والذى لم تأخذه الحياة العصرية ، ولم يخرج من القرية كما فعل والد مسـعود ، ولم يتزوج ثانيـة على زوجتـه ·· ارتبط بامرأته الأولى وأولاده ·· وفر لداره الزاد والزواد ·· سـاعده على ذلك امرأة مدبرة عاشـقة لزوجهـا وللقرية ·· والآن يملك عشرة فدادين تساوى أكثر من

مرتب مدير عام فى مصر ٠٠ ومع ذلك يظهر على الرجل البؤس والفقر مع أنه يدخر الكثير ٠٠ ولولا خجله من أولاد العم الذين أضاعو أرضهم على الكيف والنساء والحياة القاهرية ٠٠ لاشترى أرضهم التى تجاور أرضه القريبة من الرياح الغربى ٠

ضمت القعدة أيضا ذلك المسطول « عبده الفرايجى » المسئول عن مزارع اللواء « عبد الواصل درباله » ٠٠ أو بالأصح الخفير النظامى لجنينة الفواكه ومزرعة الدواجن ٠٠ وفى الحق ٠٠ وفى البداية ٠٠ كان ذلك عبده المسطول كما طارت شهرته حتى المرازيق ودهشور ، فلاحا أجيرا فى زراعة درباله ٠٠ ذلك اللواء الذى كان من ضمن الضباط الأحرار ـ الصف الثالث أو الرابع ـ لا أحد يدرى الآن فى هذا الزمن ٠

تضحك الشلة جميعها ، تنفتح الشفاه ٠٠ وتظهر الأسنان الصفراء من تأثير المضغ وشرب الدخان ٠٠ المهم أو الهام أن ذلك اللواء بعد خروجه على المعاش بعد تحقيق الثورة واستغلال مكاسبها ٠٠ (تضحك الشلة بدون مناسبة من تأثير الكيف وتبادل البرطمان الملون المياه) ٠٠٠

يأتى ذلك الدرباله الى سقارة ليستوطن ٠٠ يبث همه وباقى حيويته فى أرض بور صفراء ، يزرعها

ســوداني وفواكه ٠٠ وأخيــرا موضــة العصر ٠٠ الفراريج الانجليزية ٠

ويتنــاول أبنــاء الشــلة ٠٠ أكواب البيــرة التى اشتراها « رامز » ٠٠ الفتى الذى لم يتعد الثامنة عشرة بعد ٠٠ أبيض ، مكتنز الوجه ، طويل القامة ، به وسامة معقولة ٠٠ ذو شعر كثيف يحيط الوجه الأبيض ، الوجه الذى يدل على الخيــر والنعيم الدائم فى منزل دربالة ٠٠ فهو حفيد دربالة العظيم ٠٠ ولكنه يسكن دارا غير دار جده دربالة ٠٠ له شأن وأهميــة فى القرية حسب النفوذ الطبقى وحسب المستوى المالى ٠

وتندب الأصابع جميعهــا فى الصحن الذى يضم العجينة البيضاء المملحة ٠٠ الجبن البيضاء من دار « محمــود المجذوب » التى تبيعهــــا امرأته فى سوق الأربعاء ، وأيضا فى مص حداقة ثمار الزيتون الأسود المشترى من البقالة الوحيدة فى القرية ٠٠ بقــالة عم « معبود الحلوانى » ٠٠ هــذا هو اسمه ٠٠ كان أبوه حلوانيــا ٠٠ ألم يقولوا أن الذى بنى مصر كــان فى الأصل حلوانيا ٠٠ يا مصر ٠٠ يا حلوة ٠٠ يا بيضه ٠٠ يا زهــرة كــل العصور ٠٠ يا كاتمــة الأسرار والخبايا ٠

وانطلق شاعر القعدة الخائب « سعيد عبد ربه »

٠٠ يغنى بصوت مبحوح من تأثير المخدر ٠٠ الطالب الذى توقف عند شهادة التوجيهية ٠٠ خمس سنوات ومازال يحاول ٠٠ كل آماله تنحصر فى حجرة ضيقة على السطح فى العاصمة ، تضم فراشا يحتويه مع جسد لامرأة أيا كانت زوجة أو بنت ليل ٠

وتتحرك زجاجات البيرة ٠٠ ويزعق عبده المسطول فى ذلك الليل الخانق ٠٠ لا ريح ولا هواء ولا نسمة قادمة من الشمال ٠٠ ويضحك « رامز » فى طفولة الثامنة عشرة ، ذلك الفتى الذى يعيش فى داره وحيدا من الصحبة الا فى الليل ٠٠ صديق مسعود الجارحى، صديق اليوم والأمس والغد ٠٠ ويعود الشاعر ليلقى شعرا رخيصا فى وصف امرأة عارية ٠٠ ويعرف الجميع من تكون هذه المرأة ٠٠ فهى « غندورة » زوجة « سالم وهدان » الشقى ٠٠ الزوجة الثانية له ٠٠ أما هو ٠٠ فيقال أنه الزوج الثالث لها ٠٠ يقال أنه فى كل موسم حصاد أو موسمين تغير أزواجها ٠٠ ألم يقولوا فى الحصاد يأتى الموت أو الزواج ٠

وتمسح الأكف المرتعشة على زجاجات البيرة الفارغة ٠٠ لقد انتهت بيرة رامز ، الفتى الذى اشتراها من مال جده ومن أرضه ومن فاكهته ٠٠ وانتهت الليلة وقبلها انتهى المخدر المغشوش الممزوج بالعسل والطحينة السمراء ٠٠ هكذا يبيعون فى سوق الأربعاء

المخدر المغشوش ، جزء مثل نصف عقلة الصباع بجنيه واحد ، لترضية الزبائن والفلاحين البسطاء ·· زيت وطحينة ولبان دكر ·· وتشد ·· وتشد روحك معها ·· وسط الصحبة ·· وسط الليل ينسى مسعود الجارحى أحزانه بعض الوقت ··

ويتفرق الأصحاب ·· هذه مشيئة الله أو مشيئة الحياة ·· أو مشيئة الطبيعة الأرض والليل والنجوم ·· لا تفكر كثيرا ، عندنا الفقراء يملأون الطرقات ، والعجائز لا يجدون سبيلا ، والمرضى يموتون حيث يمرضون فالطريق الى الشفاء طويل وبعيد عن القرية ·

« لا تقولوا هذه الكلمات المتمردة » ·يقولها صائح فى آخر الليل ·· ويطلق مسعود الجارحى عيارا من مسدسه الذى يحمله دائما فى تجواله ·· المسدس المحلى المشترى من دكان عم يعقوب بخمسة جنيهات ·· مسدس محلى رخيص ·· عبارة عن ماسورة ولحام وهيكل ساذج ولكنه يقتل باستخدام طلقات مسروقة أو مهداة من عساكر الجيش ·

وتأتى آخر طلقة ·· وخيوط الفجر على وشك البزوغ ·· بعد قليل سنسمع المؤذن ·· الله يهدينا ويهديه ·· ويريح نفوسنا ·· هل هذا ممكن ·· هل تخاف يا مسعود : أخاف الليل وقسوة الحب واستحالة

ما أريد ·· هل تعرفون من أنتم ·· أنتم أنصاف رجال، لكم أنصــاف عقول وأنصاف أفئدة ·· ولهــذا فأنتم مستريحون هادئون ناعمو البال ·· تأكلون وتشربون ·· وتستزيدون دسما وشحما يوما بعد يوم ·· وتنمو شواربكم على وجوهكم المضحكة ·· الناعمة اللزجة ·

مسعود جن ·· ماذا لو سقطت ســنة واحدة ·· « رامز » ·· منــذ ثلاث ســنوات يحــاول فى المدعوقة التوجيهيــة ولا ينجح ·· جده أجر له شــقة فى الدقى ومجموعة من المدرسين الخصوصيين ·· وعاشقات رخيصات ومع ذلك يرسب تباعا بفخر ومسرة ·

عند شجرة الجميز الصامدة فى مدخل القرية ·· يتفرق الأصحاب ·· جاء وقت الفــراق لابد من النوم « يا أولاد الكلب » ·· عندكم صــباح ناعم تستريحون فيــه ، أما أنا فــلابد لى أن أذهب مبــكرا الى مؤسسة الدواجن ·· هكذا نطق توفيق أخيرا وهو يأخذ ثمــرة خيار من حقله ··

وتبتسم العيــون فى بلادة وتختفى الأجســاد فى غبشة الفجر القادم ··

ـ ٣ ـ

قضت « محاسن » الليل بطوله مستيقظة العينين ٠٠ على فراش ضيق على قدر عرض جسدها ٠٠ تنظر فى بلاهة فى اتجاه حيطان الحجـرة المبقعة الحـائلة اللون ٠٠ نور البدر يدخل فى وضوح يضىء الحجـرة المعبقة برائحة النوم ٠٠ أختيها توحة ونوسة غارقتان فى النوم مع الملائكة على السرير العريض المجاورلباب الحجرة ٠٠ وراء السرير صورة كبيرة لتوحة فى رداء العرس بجانبها زوجها الشهيد ٠

توحة تزوجت لمدة سنتين ثم عادت الى بيت أبيها ٠٠ نوسة لم تتزوج بالرغم من أنها أكبر البنات الثلاث ٠٠ العيب فى خلقتها ، ولدت برجل أطول من رجل ٠٠

ووجه أصفر بليد ·· حاولوا تزويجهـا لأحد الفلاحين الأجراء ·· ولكن أيامهـا رفضت أم نوسة ·· وتبقى الفتاة عانسا طول عمرها ·· تساعد أمها فى العجين والطبيخ ··

محاسن ·· هى البنت الوحيـدة التى تذهب الى المدرسة فى الشـتاء ·· ثم تعود طـوال الصيف ·· لتقبـع فى البيت فى مذلة ومسكنة حتى يأتى الخريف ويهل الشتاء ثم تعود لترتدى ملابس قصيرة مثل بنات المدارس فوقها مريلة بنية ·· تنزل الى البدرشين فى الأتوبيس أو فى عربة التاكسى الذى يملكه فتحى عبـد الستار ·· ترقب القطار المتجه الى القاهرة ·· تقابل مسعود الجـارحى تستصبح به دائمـــا ·· ويعـود الصيف بوخمته ولزوجته ·· وتبتعد عن الذى أحبته وتمنت المستقبل بجواره ··

قبيل الفجر ·· اسـتيقظ أبوها الشيخ ·· ضـوء المصباح فى الطـرقة يكشف خطواته ·· قطـرات من الماء تنساب من الابريق الأسود فوق ذراعى ومرفقى أبيها ·· أمها تساعد أباها فى وضوئه ··

باب الدار يفتـح ويغلق ·· الشـيخ يخـرج الى الصلاة ·· صوت أمها يصرخ فى البنات :

ـ اصحى يا نوسة ·· وانت يا توحة ، دائما فى

الأول تنادى على نوسة ٠٠ وكأنها تسترضيها ٠٠ فهى الكبيرة المحرومة ، قامت البنتان ، جلستا فوق السرير ٠

الحمـام يتحرك فى البنانى ، البهـائم تتحرك فى الزريبة ٠٠ العصافير تترك أعشاشها الصـغيرة ٠٠ نجمات الصباح تتوارى خائفة من الصباح الوضاح ٠٠ دائما تَذهـل محاسن ، تنبهر بلون الصباح البنفسجى الوردى الذى تصحو كل يوم مدرسى عليه ٠٠ أما الآن وفى الصيف ٠٠ حيث انها مركونة عاطلة ٠٠ لا يطلبها أحد للعمل فى الدار ، العمل الشاق كما يسمونه ، مثل العجين ٠٠ فهى فتاة مدارس لا تفهم كثيرا فى توليع الفرن ٠٠ أو تقريص العجين ٠٠ لتترك هذه الأشياء ، لترتيب حجرتها وحجرة أختيها ٠٠ تجتر أحزانها ، تقرأ كتاب ٠٠ ينفعها للسنة القادمة ٠٠ والقلب لا وجود له عندهم ٠٠ المشاعر مدفونة أو ميتة ولا يصح أن تظهر ٠٠ يجب أن يتوارى كل شىء فى القلب وخلف الجلباب الأسود ٠٠ وداخل العيون المريضة ٠

وعلت أصوات كركبة الأم والبنتين ٠٠ الأم تتحرك داخل وخارج غرفة المعاش ، توحة تصعد على السلم المؤدى الى السقف ٠٠ تنقل الحطب وفروع الشجر ٠

فى رقدتها ٠٠ فى محاولة جديدة للنوم ٠٠ تسمع أختيها والأم ٠٠ يثرثرن ٠٠ يحكين الحكايات عن زوجة

عبد العزيز الفقى ·· وعن « غندورة » بائعة الطعمية زوجة الشقى الضال « سالم وهدان » ·

من بعيد تسمع صوت أمهـا ، تتحرك محاسن من حجرة البنات الى مكان العجين حيث أختاها منكبتان حول الطشت الكبير الممتلىء بالدقيق الأبيض ، يعجن العجين بأيديهن ·· الأذرع تدك الى المرافق ثم تخلص بصعوبة ·

الأم تجرف التراب من داخل الفرن ·· التراب الذى بقى من أيام خبيز سابق ·· تضع الحطب وفروع الشجر ، بعد قليل سوف تتوهج النار داخل الفرن ·

وضعت الطبلية الكبيرة أمـام الفرن ·· تفرش سطحها بالردة ، الأم تقرص العجين قرصات ترصها على الطبلية وهى تبسمل ·

عادت محاسن وجلست بجانب اختيها ·· تتناول أقراص العجين الواحد بعد الآخر ··تدكها بكفيهـا الصغيرتين على الطبليـة ثم تنقلهـا على مطرحتهـا المفروشة بالردة وتطوحها فى الهواء كألعوبة فى يد طفل ·· يكبر الرغيف يكاد يغطى مستطيل المطرحة ، امتلأت الطبلية بالأقراص المسطحة ·· تتناول الأم ·· الارغفة الواحد بعد الآخر على مطرحتهـا ذات اليـد

الطويلة ٠٠ ثم ترصها داخل الفرن حيث النار مستعرة ٠

بدأ دخان الفرن يعبق وسط الدار ٠٠ الحمام يتحرك داخل البنانى مذعورا من الدخان يرتفع الى اعلى مكان فيه ، صوت الأب الدافىء يسأل :

ـ خبيز الهنا ٠٠ متى نفطر يا أولاد ٠٠

لقد عاد الشيخ المهاب العريض الوقور من صلاة الفجر بعد لحظة زمن والاب يخلع جلبابه الصوفى ليرتدى جلباب البيت المقلم الواسع ، يقول وكأنه لا يهتم بما يقول :

ـ مسعود الجارحى سيعيد السنة ٠٠

احست محاسن بسكين حادة تدخل قلبها ٠٠ اذ عاد أمس ولم يمر على أبيها كوعده بعد النجاح ٠٠ سمعت امها تقول وهى تحرك أحد الأقراص فوق مطرحتها :

ـ « واحنا مالنا يا أخويا » ٠٠ هنجيب فى سيرة الناس ليه ٠٠

ـ « مش جيران ٠٠ وابوه والله يرحمه كان زى اخويا تماما ٠ وسعدهم يسعدنا والا ايه » ٠

ـ قومى يامحاسن ٠٠ فطرى أبوك ٠٠

وتتحـرك بـدون روح ، بدون أمـل ، تتمنى ان يتركوها فى حالهـا ، تبكى حتى تدمى عينيهـا تشكو الزمن الغادر ، لا أحد يشعر بالآمهـا والنـار تحرق قلبها الصغير ٠

ـ يالله يا بنت انت وهى خفوا شـوية ٠٠ النـار ستهدأ ولسه ماخلصناش ٠

***

دخـل مسعود الجارحى فى هـدوء من الشرفة البحرية الى داخل الـدار الى دورة الميـاه ٠٠ يريد أن يتقيأ البيرة ، شرب وحده زجاجتين ، معدته انتفخت ، يحس بثقلها على جسده النحيف المعظم ٠٠ لا مياه فى خـزان الـدار ، يشرب عقب سـيجارته فى شـهوة وتبلد ، ينظر للحوض الجـاف ٠٠ لا قطرة ميـاه فى الحنفيات ، انتهى عصر الارتواء منذ زمن ، يضرب على ركبته فى عصبية ، يتحرك ببطء الى حجرته ٠٠ الـكل نيام ، أخته التى ستتزوج الشهر القادم ويجب عليه أن يكون حصاد النخيل كله لهـا هذه السنة ٠٠ لتجهيـز شقتهـا ولشراء الأثاثات ٠٠ لقـد تركه أبوه للـدمار والاخوة وان لم يكن الكبير عمرا ٠٠ فانه الكبير شأنا ومكانا ٠٠ أخوه الكبير تعلم ودخل كلية ضباط الاحتياط

وطلب نقله الى البحر الأحمر ·· ولا يعود الى القـرية الا لماما · يقال ان السبب أنه كان قد خطب فتاة ماتت قبل زفافها له بعشرة أيام ، ولـكن ما ذنبـه ، وما ذنب عائلتـه ، أصبح لا يحب أهل قريته ، لا يجـد المؤانسة معهم ، لا يجـد الاستقرار ، أصبح نافرا من القـرية وأهلها ·· ومنذ أسابيع ·· عندما زارهم زيارة قصيرة ·· قال لهم : لقد خطبت ابنة رئيسى فى العمل ··

هذا هو الصواب ·· لقد تجاوزت محنتك ·· اذن عـد الى قريتك ·· لتكون كبير العـائلة وترحمنى من الحصاد ومن مشاكسة الفـلاحين ومن متابعة اخوتك الأولاد الـذين ينجحون بصعوبة فى المدارس ·· ومن متابعة زواج أختك ··

ولكنـه لا يجـد الا حائطا أصم ·· ارتضى لنفسه البعد عن القرية والأهل··فى البداية كان له عذره·· ولكن بعـد أن اندمل الجرح وخطبت ابنة رئيسك ، لم يعد لك عذر لكى لا تعود الى أهلك وعشيرتك ·· أم هل تريد أن تهرب الى الأبد من مشاكل الأهل والقرية ·

بدأت تباشير الصبـاح تظهر فى الأفق ، لا يجـد النوم ·· مذاقه صعب هـذه الليلة ، ولكنه سيأتى فى الليالى القـادمة ·· على الأقل بعـد أيام الحصاد ·· حصاد التمر ·· أو حصـاد الموت كمـا هو معروف وشائع فى سقارة ·

ـ ٤ ـ

كتب قليــلة على نافذة الغرفة ، يجثم التراب على أغلفتها ٠٠ مذكرات الشعر الخائب الذى لا يجيد صنع شىء سواه ، لو كان قد تعلم ٠٠ عرف كيف يزرع حقلا ، يحصد ، يتحرك خلف بهيمتين معصوبتى العينين ٠٠ يصعد الى النخيل ليجنى ثماره الحمراء والصفراء ٠٠

لم يكتب له النجــاح فى الدراســة ٠٠ وحتى اذا نجح ، ماذا بعد النجاح ٠٠ عشرون جنيها ٠٠ يأخذها الآن من أمه ٠٠ يشرب بها سجائر ولا يجد ما يفيض ٠٠ ليشترى (جاكت صوف) لأجل الشتاء ولأجل الزمهرير القاسى والرياح التى لا ترحم أحدا ٠٠ الرياح القــادمة لا شــك فى يوم قريب ٠٠ الرياح التى أوقعت زريبتهم السنة الماضية ٠

لماذا تفكر فى الشتاء ·· والشتاء بعيد والحر يقتل البشر الآن ·· عند الشتاء قد تتدبر الأمور ··

يعود خياله يمتلىء بالصور المتوترة القديمة التى تعود له كلما جلس وحيدا ·· فى فراغ موحش ·

الأب الكريم ·· فى مكانه على الأريكة الجريد فى شرفة الدوار ·· مشغول بالتسابيح ·· يلعب حوله الصغار ·· تدخل أمه عليه ·· وتخرج ·· ولا تعود تخرج بعد مجىء بعض رجال العزب القريبة ·

وجه أبيه مهاب متناسق الملامح ، عينان بنيتان ·· يتحدث فى هدوء وأناة ·· لكلماته سحر العجب فى نفوس الرجال الملتفين حوله ·· يتدخل دائما للصلح بين الناس ، يمنع سرقات الواد الشقى سالم وهدان فى الوقت المناسب ، يصر على أن يعود الواد الشقى بما سرقه الى الدور المنهوبة والزرائب التى تفتح بعد نصف الليل ·

بعد وفاته ·· فقدت القرية الكثير ·· وأكل الكبير الصغير ·· وانتشرت الوحوش الصغار ·· قطط نصف الليل ··

الموت رهيب ·· دار البقاء ·· المقابر من غير شواهد ·· مجموعة من القمم الترابية ·· القليل منها فوقه لوحة خشبية ·

عند مقبرة أبيه ·· شجرة صبار ·· حفروا فى الأرض ·· وسدوه اللحد ·· عاد باللحاف الذى كان يغطى الجسد ·· النسوة يبكين ، يصرخن ، يلطخن الثياب ·

اللحاف الذى كان يحيط جسده ، يتغطى به الآن فى ليالى الشتاء ، يدخن سيجارته الأخيرة فى العلبة الصغيرة ، العلبة التى شاركته جلسة أمس الصاخبة حتى مطلع الفجر الأصفر الواهن ، يتمنى اذا استطاع أن يبقى وحيدا لكنه يعود بذاكرته اليها ·· غدائرها ، عيناها ، ابتسامتها الرائعة ، جسدها المنسق ، ردفاها الصغيران ·

عندما كانا طفلين صغيرين ·· فى العيد كانت تزورهم مع أمها ·· صغيرة لطيفة ودودة مرتدية رداء أحمر قصيرا ، ضفائرها مزدانة بشريط أخضر ·· مثل العرائس المعروضة فى دكاكين الحلوى أيام المولد ·

كان يسير وراءها حتى باب الحارة ، تنظر من وراء أمها ·· تختلس نظرات رقيقة شقية مملوءة بالحب والود ·

يتصورها الآن امرأة مرتدية السواد يقطع أهلها رأسها ويرمونها فى الرياح الغربى ·

منذ أيام وعند مكان ذبح المواشى ٠٠ حيث تختلط الرائحة العفنة بروث البهائم بالدم ٠٠ وجدوا عروسا مقطوعة الرأس ، مربوطة الذراعين والقدمين ٠٠ بعد أيام وفى نفس المكان وجدوا فتى ممشوق القوام ، أكل السمك عينيه ٠

تأتى الى سمعه جلبة داخل الدار ٠٠ « نادر بن اللواء دربالة » ٠٠ جاء يسأل عليه ٠٠ جاء فى الوقت المناسب ٠٠ يبعده عن خياله المريض ٠٠

الأم والاخوة الصغار يحيون الضيف العزيز والذى يعمل الآن طبيب أسنان فى البدرشين ٠٠ يخرج من حجرته الرطبة لملاقاة الضيف القادم ، يخرج من عزلته ووحدته وأوهامه الصفراء ٠

ـ ٥ ـ

عاش « نادر دربالة » فتـرة طفولتـه وشبابه النضر فى قرية سـقارة ٠٠ نادر ابن عبـد الواصـل دربالة الـذى كان لواء فى الجيش ٠٠ ثم بعـد ثورة يوليو المجيدة ٠٠ اشتغل كرئيس مجلس ادارة شركة للزيوت ٠٠ ثم شركة أخـرى للعطور ٠٠ خرج منهـا مطرودا فى احدى فترات التغيير أو التطهير ٠٠

نادر دربالة ترتيبـه الثـالث بين أبنـاء اللواء دربالة ٠٠ الأولى « عفاف » تزوجت من ابن عمها الذى اشترى لها أرضا بجوار أبيها ، بنى لها فيللا كبيـرة مثل حصن هائل ممسوح الجدران ٠٠ الحصن مهجور الآن ٠٠ بعد وفاة زوجها فى عرس أحـد الفلاحين ـ حتى هذه الأيام ـ لم يعرف أحـد هل كانت الطلقـة

مقصودة ٠٠ أم أنهـا جاءت طائشة لتخلق الذعر فى القرية أياما وشهورا طويلة ٠٠ انقلبت الدنيا وقتهـا من البوليس والصحافة ودعاة الاثارة ٠٠ ثم خمـدت الفتنـة ٠٠ ودخـل الفـلاح الذى أطلق الرصاصة ، السجن ليقضى بقيـة عمره ٠٠ وتركت أسرته القـرية تماما كما فعلت عفـاف ٠٠ لا تأتى الى القـرية الا فى المواسم والأعيـاد الى فيللا أبيهـا ٠٠ أمـا الحصن الخاص بها فهو مقفول لتنعم به الجرذان والعقارب ٠

أنجبت عفاف من زوجها ولدا واحـدا ـ رامز ـ صديق مسعود الجارحى وهو الآن طالب فى التوجيهية يعيدها للمرة الثالثة ٠

بعد عفاف ٠٠ شاكر ٠٠ محاسب فى شركة الحديد والصلب ٠٠ ثم يأتى نادر الذى درس طب أسنان ٠٠ وجاء تعيينه بعـد الوساطة فى مركـز البدرشين ٠٠ يذهب لها كل يوم بعربة العائلة ٠٠

« نادر دربالة » ٠٠ شاب طويل عريض المنكبين ٠٠ ممتـلىء الوجه ، أبيض البشرة ، خفيف الشـعر والحاجبين يجمع بين أخـلاق القرية التى تربى بهـا وعرف زمـلاء الليـل ، وأولاد الزعفرانى ومسـعود الجارحى وأخيه الأكبر الضابط ٠٠ وأيضا أخلاق المدينة الذى تعلم فيها ٠٠ حتى ملابسه تجمع بين هندام القرية

وذوق أهل البندر ·· متطلع طموح ·· غير راض عن نفسه بالرغم من أنه يعيش حيـــاة هانئـة رغــدة بحكم وضع أبيه المـالى فى القرية ، عنـده الآن أرض تزرع سودانى وتمر ·

ولكنه ناقم تماما ·· يريد أن يغير جلده ·· العربة قديمة ولا تليق به ·· والقرية بيوتها مهما اتسعت فهى بعيدة عن البندر والعاصمة ·

حتى فى زواجه ·· رغب فى زيجة تليق بمكـانته كدكتور أسنان فى بندر البدرشين ·· لهذا خطب أبوه له ابنة مستشار تسكن فى عمـارة مكونة من ثمـانية طوابق تطل على النيل ، نوافذها متسعة كلها زجـاج وستائر معدنية ملونة ·

المستشار كان زميل اللواء أيام الدراسة الثانوية ·· رجل طيب مثقف ·· على المعاش الآن ·· له ابنة واحدة فى السنة الثانية الثانوى ·· فتاة طويلة نحيفة ·· قليلة الحظ مع الجمال ·· ولكن المنزل أبهة ، والأم تتكلم عدة لغات والأب مثقف مهاب ذو شخصية نادرة ·

كل هذه الظروف سحرت الشاب العريض الطويل ذا البشرة الباهتة « نادر دربالة » فوافق على خطبة الفتاة ذات الحظ القليل من الجمال ·

أما الأب عبد الواصل دربالة فكان سعيدا غاية السعادة بذلك النسب ، متمنيا لابنه الأكبر شاكر نفس الحظ ·

شاكر كان قد تقدم لخطبة فتاة من دهشور ·· ولكنها رفضته ومن يومها والشاب عنده عقدة ضد الزواج ، وهكذا يقول ساكنو حصن دربالة ·

بعد قراءة فتحة نادر دربالة على « الهام » ابنة المستشار بدأت المشاكل ·· بعد المهر الكبير الذى دفعه الوالد مضطرا نظرًا لرفعة شأن عائلة النسب ·

بدأ التفكير فى الفرح ·· الهام تريد الفرح فى شيراتون ·· ليست أقل من ابنة خالتها ، بدأت المساومات على تكاليف الفرح ·· اللواء دربالة رفض دفع أكثر من ألف جنيه ولكن الهام وخلفها الأم تريد راقصة مصر الأولى ومغنية الأفراح ذائعة الصيت وفرقة جاز مشهورة ·· واعداد المدعوين ·· الهام لها أكثر من خمسين صديقا وصديقة من النادى وحده ·

اللواء دربالة يريد دعوة كبار البلد ـ فرصة للظهور مرة أخرى فى الحياة العامة التى حرم منها طيلة السنوات الماضية ، مكتفيا بالحصن وبالضيعة وما تدره عليه ·

بعـد المناقشات والمشاحنات ٠٠ العروس لا تريد الخروج مع العريس ٠٠ لا يعجبها هندامه ٠٠ قال لها نادر أكثر من مرة ٠٠ اختارى لى ملابسى ٠٠ وصلت المشـاحنات حد التفكير فى العـدول عن الفـرح وعن العروس المشاكسة التى وصلت الى الرابعة والعشرين ومازالت طالبة خائبة فى السنة الثانية ثانوى ٠

أصر نادر فى يوم على فك الخطوبة وعدم اتمام عقـد القران وحضور الحفـل فى شيراتون ٠٠ وقفت أمامه العـائلة : الأب وشاكر الـذى قال له بالحرف الواحد : « يا أخى عظيم انهم رضوا بك » ٠٠

أول نادر هذا التعبير لسوء حظ أخيه فى الزواج عندما أقدم عليه ، زاد الطين بلة ٠٠ ان الخطيبة التى ترفض الخروج مع خطيبها ٠٠ تخرج مع أصدقائها من الجنسين ٠٠ تقابل صـديقا محـــددا فى البيت يدعى زيزو ، ولد رقيع يجيد المغازلة والرقص ٠

ولكن الوقت يمر ولا حيلة فى التراجع ٠٠ بطاقات الدعوات أرسلت الى الوجهـاء والكبار وأخيرا اقتنع اللواء دربالة بفساد العروس وأنها لا تصلح للارتباط بابنه ٠٠ ولكن ليتم الطلاق بهدوء بعد حفل القران فى شيراتون ٠

وجـد مسعود الجارحى صديقه نادر دربالة فى

أسوأ حالاته ، انسان مقدم على عقد قرانه على فتاة مشاكسة لا يريدها وأبوه يريد اتمام الزواج وحضور الحفل ثم الطلاق فى تكتم شديد ٠

حاول مسعود أن يسرى عن نادر الذى جاء فى الدار شاكيا متعجبا من تصرفات الأب الكبير الذى يريد فقط الحفاظ على المظاهر ٠٠ ليلة وتمر ٠٠ حاول أن تبتسم ٠٠ حاول أن تكون رائعا تحب عروستك ولو ليلة واحدة ٠٠ ليلة واحدة وتمر ٠

نادر يرفض ذلك الزيف ٠٠ يرفض حضور عقد القران والحفل الذى تم الاستعداد له ٠٠ وليذهب جميع الآباء الى جهنم ٠٠٠ ولتذهب المظاهر والأقنعة الى الزوال ٠

ـ ٦ ـ

فى الظلام ، تسلل فتحى عبد الستار فى الدروب الراقدة خلف سوق السمك عنـد دير المـلاك الى منزل أم زميله وصديق الصبا والذى يقوم الآن بواجبه نحـو بلده فى رأس غارب يحفظ جيدا موعد نزوله العاصمة ، يتمنى ألا يقابله فى هذه الساعة المتأخرة ٠

صـعد الدرجات الحجرية ببطء وتمهل ، الأرملة تسكن فى آخر طوابق المنزل العتيق ، النور مضاء وهى فى انتظاره ٠٠ يضع المفتاح فى خرم الباب ٠٠ الأرملة جالسة فى دعة تنتظر قدومه ٠٠ اختفى توترها بمجرد رؤية وجهه المضىء الشاب وشاربه الكثيف ٠٠ جالسة على كنبة فى وسط الصالة تريح ذراعها السمين على مخدات لينة ٠٠ مستعدة فى ثوب يكشف عن ثدييهـا

الثقيلين الناصعين ، على وجهها ابتسامة مفعمة بالشقاوة والعربدة ، حاجباها منتوفان مزججان بالكحل ، وجنتاها مصبوغتان باللون الأحمر ، تنهض من جلستها الساخنة ، ضخمة لحيمة بيضاء ، تعصب منديلا بأووية مطرزا بالورود الصناعية ، تضحك عن صف من الأسنان الذهبية تسأله هل تأتى بلوازم السهرة ..

لا حديث بينهما ، لا حوار متصل ، وضعت أمامه مائدة صغيرة عليها جوز من الحمام المحشى وطاجن أرز مكدسة قمته بقطع من الكبد والقوانص .. تتحرك كمحمل لتحضر زجاجة الشراب ، تسأله هل تلف له سيجارتى حشيش .. يدعوها على الأكل .. تتمنع بحجة أنها لا تتناول عشاء هذه الأيام .. يمتلىء جوفه بالأكل والشراب ..

تتحرك فى خفة ودلع الى حجرة نومها المدهونة باللون الوردى .. يجد نفسه ينظر بدون أن يقصد الى حجرة زميله وصديقه ، الحجرة المغلقة فى هذه الليلة ..

تتحرك على السرير .. يسمع رنة أساورها الذهبية التى تحيط معصمها .. بجانب السرير كرسى خشبى فوقه حق الدهان ..

تلعق جســده الخشن ٠٠ تعضه فى صــدره ٠٠ تموء كقطة فى ليلة باردة ٠٠ يحيطها بجسده النحيف بالنسبة لجسمها الضخم ٠٠ يركبها وهى تئن وتتوجع

امتــلأ جســده بالعرق وهى مازالت تلعق بواقى الليلة الموعودة ، تقول له ان ابنها عرف بخبر زواجها وأنه غاضب أشد الغضب وهى تخاف عليه من ابنهــا الطائش القليل الحكمة ٠٠

تسأل فى ثورة مكتومة عن خبر خطبته لقريبته فى قرية سقارة ٠٠ لا يرد عليها ٠٠ ذهب فى النوم قبل أن يطلع الفجر عليهما ٠٠

الأرملة هائجة مثل لبؤة ٠٠ لا تجد النوم ٠٠ تقوم من الفراش بعد تغطيته بملاءة خفيفة ٠٠ لئلا يصــيبه برد أو مرض ، تدور فى أنحــاء الصــالة ٠٠ تشــعل سيجارة ٠٠ يصل أذان الفجر واضــحا من الجــامع القريب ٠

★★★

فى نفس الليــلة وعلى بعــد كيلو متــرات ٠٠ فى سقارة ٠٠بعد عودة مسعود من سهرته الليلية المعتادة فى الخص ٠٠ وبعــد أن قفل نافذة حجرته ودلف الى الفراش ٠٠ سمع خبطات رقيقة على شيش النافذة ٠٠ خبطات معروفة لديه ٠٠

فتح النافذة بهدوء ·· ليجد « غندورة » بائعة الطعمية فى السوق ، زوجة الشقى « سالم وهدان » والمتخصص فى سرقة البهائم من القرى المجاورة ·· يرد بعضها بعد دفع الفدية المقررة ·

أدرك « مسعود » فى التو سبب قدومها اليه ·· « سالم » فى مهمة خاصة خارج القرية فى هذه الساعة ·· خرج مسعود من حجرته الى حوش الدار يطمئن الى نوم الأهل ·· ثم عاد ليفتح لغندورة الباب ·

تدخل فى سرعة الريح ·· الى مرقده ·· وفى ثوان خلع الاثنان جلبابيهما ورقدا معا على الفراش ·· به شوق لاذابة القلق والضياع الساخن الذى يعتمل فى صدره وفى جسده من يوم رسوبه وتحطم آماله ·· لم يلتق بمحاسن من يوم ظهور النتيجة ··

حاولت غندورة القيام ·· ترتدى جلبابها الاسود ·· فركلها بقدمه فى بطنها ·· وأطبق بيده النحيفة القوية على فمها ، وأعادها بقسوة وبمهانة الى الفراش ··

خرجت غندورة كلصة فى أثواب الفجر وهو على وشك الظهور ·· الرجال فى القرية يخرجون للصلاة فى هذا الوقت المبكر ·· الموظفون يتحركون سيرا على

الأقدام الى مشارف القرية فى سبيل مواصلة تأخذهم الى البندر ·

قلبها يطن بانفعال وهى تتحرك من دار مسعود الجارحى خوفا من الفضيحة وبطش وانتقام زوجها الشقى ·· ذلك المجنون الأحمق ، مسعود لا يهمه القيل والقال ·· لا يهمه أن يدركها الموت وهى مازالت فى سن الشباب المبكر ··

دخلت دارهم المبنية من الطين ·· الخوف والانزعاج واضحا على وجهها الأصفر الذابل فوجدت ابنها البكر عاطف واقفا فوق فرشته ، يدعك عينيه من تأثير النوم ، يسألها فى تبجح أين كانت فى تلك الساعة المبكرة من الصباح ·· لا تلقى اليه بالا ·· تبعد ابنتها الصغيرة التى أخذت راحتها فى النوم ·· تحاول أن تنام ولو نصف ساعة قبل خروجها الى السوق ·· تتحسس صدرها وبطنها ··ذلك المجنون الأحمق أهانها وضربها هذه الليلة ·· ولولا ستر الجلباب الأسود ولولا نور اللمبة الجاز ·· لكانت فضيحتها على كل لسان اليوم والليالى القادمة عندما يضاجعها زوجها ·· وشدت اللحاف المنحول الأطراف على جسدها ، تغطى مهانتها ومصيبتها فى تلك السويعات التى سرقتها من الدهر من أجل المتعة الحرام مع ذلك الطائش ·

ـ ٧ ـ

بدأ الاستعداد لحفل العرس فى شيراتون ٠٠ وفى يوم الفرح اختفى نادر دربالة من سقارة حيث الحصن ومن الدقى حيث منزل أخته عفاف ٠

لجأ اللواء دربالة الى مسعود الجـارحى ليبحث عنه فى احـدى (العشش) التى يتردد عليهـا ذلك النادر الذى ينوى أ نيفضحه أمام السلاطين والكبار فى البلد ٠

الفرح لابد أن يقام وأن يحضره العريس وليكن مثل التمثال المصبوب من الجبس ، من بعيد عريس مرتدى بدلة غامقـة سوداء مكلفة بالقمـاش اللامع ٠٠ يراه الناس والمجتمعون ويبتسمون ويحقدون وينتهى الفرح ٠٠ ونتدبر أمرنا فى هدوء ٠٠

ترك مسعود الجارحى القرية وفى قلبه مزيد من الفرح ٠٠ أن يلجأ اليه ذلك المدعو اللواء دربالة الــذى كــان يراه فى دروب القــرية أو فى السوق أو عنــد الزراعة ولا يحييه واليوم يأتى اليه فى داره أمام كل عيون سقارة ٠٠ ويرجوه أن ينزل الى القاهرة ليبحث عن نادر فى جميع العشش التى يتردد عليها بكثرة فى أيام الاجازات ٠٠ كان نادر قد عولج منــذ عدة أشهر من أحد الأمراض السرية المزمنة ٠٠ ساعدة علمه فى الطب بتداركه المصيبة من البداية ٠

عرف مسعود طريق نادر فى شوارع العــاصمة التى لا تهدأ أبدا ولا تكل ٠

هناك فى درب طيــاب المتفرع من كلوت بك ٠٠٠ كان يرقد نادر شبى مغمى عليه ٠٠ أمام فخذ امرأة سمينة ترتدى أساور ذهبية تكاد تكل منها ذراعاها ٠٠ تناول المسكين لأول مرة حبوب البندريكس ٠٠

أخــذه مسعود فى تاكسي الى شقة شقيقته عفاف فى الــدقى ، يتمنى مســعود فى قرارة نفسه أن يركب تلك الأنثى الأنيقة النحيفة القوام الفواحة العطر التى تتكلم الفرنسية بطلاقة ولو أنها تنتمى الى القرية ٠٠

فى المساء ٠٠ تم عقد القران فى صمت وكآبة ٠٠ فى منــزل العروس على النيــل ٠٠ ثم نزل العروسان

كأنهما موتى للتحنيط الى احدى المصوراتية فى شارع سليمان ‥ وقفا فى طابور العرائس والعرسان ‥ حتى جاء ذلك الخواجة المدعو ارمان وأخذ لهما ثلاث لقطات ٠

فى الليل ‥ تقدم العروسان ‥ بين صفين من باقات الورد ‥ ومن فتيان يرتدون حللا موشاة بالقصب يرفعون السيوف ‥ وفتيات يرتدين الأبيض

فى نهاية الممشى كان والد العريس ووالد العروس المستشار يقفان فى اعياء كامل ‥ عرف نادر اليوم لأول مرة من أخته عفاف سبب اصرار أبيه على تكملة الزواج من ابنة المستشار ، الرجل مريض بالسرطان فى المعدة ولن يعيش أكثر من ستة شهور ‥ لا يعرف الخبر سوى الرجل وزوجته واللواء دربالة ٠

جلس العروسان فى الكوشة ‥ لايجد شيئا يقوله لها ‥ تضع عطرا نفاذا ، حادا مثل أخلاقها ، اقترب المدعوون والمدعوات لتقبيل العروسين ‥ شرب العريس رشفة من كوب العروسة الأحمر وشربت العروس رشفة من كوب العريس الأصفر ، رقصت الراقصات وغنى المغنون ‥ ثم بدأ حفل العشاء ووقف العروسان واقتربت أصابعهما وهما يحاولان تقطيع تورتة العروس البيضاء الخمسة أدوار ٠

ثم عاد المدعوون الى أماكنهم ·· وقبلهم العروسان الى مكان الصدارة ·· استعدت فرقة الجاز ·· وقام المدعوون بالرقص ·· ثم اجتاح فرقة الجاز حمى الموسيقى الصاخبة على أثر تأثير الشباب ·· تراجع الكبار والمسئولون وامتلأت الحلبة بالشباب المجنون ·· طلبت العروس من العريس الرقص ·· فرفض ·· هددته ·· انها ستقوم بالرقص مع أحد الشباب الذين يملأون المكان ·

صفق المدعوون ·· عندما قام العريس والعروس الى الرقص ·· لم تستطع « العروس » أن تمنع نفسها من الرقص بخلاعة شديدة وجسدها يتحرك وسط ذلك الثوب الأبيض الضيق ·· لم يستطع العريس مجاراة تلك الطائشة ·· شعر بالخجل ·· تمنى الموت ·· أو تنشق الأرض وتبلعه ··

كانت فرجة رائعة ·· سريعا ما اقتربت خالة العروس ·· وأخذت العروس والعريس ·· تحيطهما بذراعيها الى مكانهما المحترم ·· وسط تصفيق المدعوين ·

انتهت الليلة ·· ومرت كأنها عشر سنين ·· بين لحظة ولحظة عشرون لحظة ·· وعاد نادر دربالة الى قريته ·· مصرا على الطلاق ·· بعد أيام قليلة ·· لن ينتظر حتى موت الأب ·

ـ ٨ ـ

رتب أخو مسعود الأكبر «فؤاد» الضابط الاحتياطى اجـازته ليحضر جمـع الفول السودانى ·· البنـات الأجيرات يعملن فى خطوط ، يجمعن الثمار النضرة من نهاية شرايين العود ، كل فتاة لها الكوم أو الهرم الخاص بها ·· من بعيد يبـدو هرم زوسر المـدرج ·· أيضـا أشجار النخيل تغلف المكان ·

الجو صحو جميـل ·· ليس ساخنا كعـادة أيام أغسطس ·· فى خص من البوص ، يجلس الرجال ·· يشاهدون من بعيد حركة البنات الدؤوبات على العمل ·· وبعض النساء الشمطاوات اللاتى يعاين الأكوام التى جمعت أمس ويعرضن مبالغ زهيدة فى مقابلها ·· لا ترضى الرجال المجتمعين فى الخص ·

يتناوب فؤاد ومسـعود حراسة الفول السودانى المنشور ٠٠ وأيضـا جمعـه ٠٠ لا يتركان الخص ٠٠ حتىينتهى حصاد الفول السودانى ٠٠ الأرضالوحيدة التى يزرعانها ٠٠ أما باقى الأرض الموروثة عن الأب فمؤجرة للفلاحين الـذين ينهبونهم ٠٠ يعطونهم أقل القليل ٠٠ سبعة أمثـال الضريبة ٠٠ الأمر القديم ٠٠ بالرغم من أن التمر ارتفع ثمنه أكثر من مرة ٠٠ ارتفع كل شىء عدا الانسان ٠

يقول مسعود ذلك دائمـا فى مواجهـة الرجال الكبار المؤجرين للأرض ٠٠ والذين يأتون اليه الخص أحيـانا ٠٠ يحضر مسعود أحيـانا جمع الثمـار ٠٠ ولكنهم دائما يخذلونه ٠٠ويأخذ أقل القليل ولا يستطيع أخذ الأرض منهم ليزرعها أو ليؤجرها ٠

يقول فى نفسه لو كنت فلاحا ٠٠ كان أفضل لى من نصف فلاح ونصف جامعى ٠٠ لم أنجح فى احداهما ٠

بعد رحيل الرجال ٠٠ وترك مخلفاتهم وراءهم ٠٠ من سودانى تم قليه ببعض الأعشاب ، وبرطمان جوزة وبوصـة وورقة معسل مكورة على نفسها بعـد أن تم تفريغها منذ قليل ٠٠ وقوالح أصبحت رمادا وحجـارة ملوثة ٠

قال مسعود بعد رحيل الرجال لأخيه « فؤاد » انه

يريد أن يبيع أرضه ‥ الجزء الخـاص به من الأرض المزروعة بالسودانى وذلك بعد جمعه ٠

ـ وهل هناك مشتر ؟‥

ـ رجل أنت تعرفه جيدا الحاج حميدة تاجر الآثار ‥ الله تاب عليه من سرقة الآثار ويريد أن يستخدم ماله فى الدواجن ‥ اقترح على أن يشترى الأرض المجاورة للترعة ‥ سيقيم فوقها مزرعة للدواجن ٠

عند ذلك الحديث ثار فؤاد على أخيـه واتهمه بالطيش والحمق ‥ مـاذا يقول علينـا الجيـران والأقارب ، يقولون ان أبنـاء الجارحى باعوا أرضهم بعد وفاة أبيهم ‥

مسعود كان مستعدا لكل كلمة يقولها أخوه ٠

قال بثورة مقصودة :

ـ لقد تعلمت وأصبحت ضابطا وستتزوج بعد أيام واقتطعت لنفسك مكانا فى الدار وبنيت بينك وبيننـا حائطـا أصم ‥ لتـكون لك شـقة خاصة بك ، معك « فلوس » تشترى ملابسا وزواجا وتبنى حائطا ٠

وأنا خـائب لا أملك قميصـا أنزل به الكليـة ‥

جلبابان فقط٠٠يكادان يتمزقان من كثرة الحركة فيهما والنوم بهما ٠

أريد ان أتزوج ٠٠ أحب ٠٠ ولا أستطيع أن أتقدم لمن أحب ٠٠

وعاد مسعود يقول :

ـ أريد أن أترك القرية ٠٠ السنة الماضية تزوجت أختك الكبيرة ٠٠ الآن أستعد لتزويج الثانية ٠٠ أنت لا تعرفنا ٠٠ نقلت نفسك الى البحر الأحمر لتأخذ راتبا أكبر ٠٠ ولا نعرف شيئا عن راتبك ولا تساعدنا ٠٠ وتقدم على الزواج ٠٠ الأولى تخيب٠٠ثم تعود لتتزوج مرة ثانية٠٠وتطالبنى بنصيبك من ايجار الأرض ٠٠ على أن أقوم باعالة أمى واخوتى الصغار والاخوة الذين يذهبون الى القاهرة فى مدارس خاصة بعد ما استنفدوا مرات رسوبهم فى المدارس الأميرية ٠

قال فؤاد : وأنت أيضا أخذت التوجيهية منمدرسة خاصة فى المنيل ٠٠ لم يكن يتأخر عنك أبوك أبدا وكان سبب دلعك وقرفك ٠

قال مسعود :

ـ أراهن أنك لا تعرف ماذا تقول ٠٠ كل هذا العز

الذى كان فى وجود أبى ·· تلاشى بعـد وفاته ·· كان رجال القرية يسكتون على ديونهم لديه ·· مخافة احراجه وايلامه ، ولكن بعـد ذهـابه ·· تغير كل شىء وطالب الرجال بحقوقهم ·

أصبحت أنا الرجل الوحيد ، أنت أيضا لك مشاكلك الخاصة ·· حبك الذى مات ·· فلم تتحمل ·· نقلت نفسك الى البحـر الأحمر ·· وأنا أيضـا لى مشاكلى الخاصة ، كليتى ودراستى وأيضا مشاكسة الفلاحين ·· والعرسان الذين قدموا بعد موت الأب لأجل اخوتك البنات ، الأولى تتزوج السنة الماضية ، والثانية نكمل أثاثها هذه الأيام ·

وأنت أيضا تتزوج وتأخذ جزءا من الدار ·· بل تأخذ حجرتى الخاصة التى أقرأ فيهـا وأذاكر فيهـا ، وتضع بيننـا وبينك حائطا أصم ، ومع ذلك لا تنسى أن تأخذ أجازتك مع موعد السودانى ·· كأننى أسرقكم ·· أسرقكم وأين أضـع ما أسرقه ·· وأنا مكبـل فى تلك القرية ، ياليت أبى ما علمنى وأدخلنى كلية ·· وتركنى أجد طريقى فى الحياة كفلاح أجير فى أرض الغير ·

أخيرا قال فؤاد بعد صمت دام عدة دقائق : والله لو أقدمت على بيع جزء من هـذه الأرض ·· لا أعرفك مطلقا ·· وسأحكى لأعمامك لكى يمنعوا ذلك المدعـو

سارق الآثار من دخول سـقارة ·· ومحـاولته سرقة أرضنا فى وضح النهـار · وستكون منبوذا منـا ·· مطوروداً من أرضنا ومن عزنا · وسأحكى للعم النبوى الـذى تريد أن تنـاسبه ·· من أين أتيت بالمـال لكى تتزوج ابنته محاسن ·

كل الكبار فى سقارة أعمام حتى ولو كان النسب لعاشر جد ·

لم يرد مسعود ·· ولـكن كان وجهه ينطق بعـدم الاهتمـام بكل ما قاله أخوه ، فى عقله تتشعب فـكرة واحدة ·· وهى بيع أرضه والهروب ·· يمر فى طريقه على عمه « الشيخ نبوى » ليطلب يد ابنته ·

اذا لم يوافق لأى سبب من الأسباب ·· فانه يترك القرية الى العاصمة أو الى أى مكان فى الخارج كمـا يفعل أغلب الشباب الآن ·

الأبواب تغلق أمام الوجوه الفتيـة الآن ·· بدأ الظلم والكذب يزحفان على الصدق والشرف ·

ـ ٩ ـ

عنـد السوق قابلهـا مسعود ٠٠ منـذ شهور لم يقابلها ، الابتسامة تملأ الوجه ، الحب حفر لنفسه خطا عميقا داخل قلبه ٠٠ تمنى لو استطاع أن يحتضنهـا أمام الشغالين فى السوق ، ودكاكين البضائع ومحلات الأنتيكات ٠

أومأ برأسه لها ٠٠ لم تستطع له رفضا ٠٠ تعرف نفسها ، تذوب عند رؤيته ، شعره الأحمر الغزير الذى يملأ رأسه ، عيناه الضيقتان ، فوقهما حاجبان كثيفان بلون الشعر ٠٠ وجه ضخم ٠٠ فقط هنـاك خطـان محفوران حول الشفتين الرقيقتين ٠٠ كثيرا ما قبلهـا فى ظلمـة الدار وظل النور البرتقـالى ، فى غفلة الأب والأم ٠

طويل القامة مرتفع كنخلة باسقة رافعة قامتها الى السماء الرمادية اللون فى هذا المساء ··

من بعيد تظهـر خيوط الغـروب ·

سار بعيدا عن البشر على طريق البدرشين سقارة ·· طريق ممهد ولا يسير عليه فى هـــذا الوقت سوى عربات السياح ··

شعرت بكفه يلمسها ·· يلمس جسدها النـاصع البياض ·· لماذا خرجت اليوم ، ولماذا رضى أهلها أن تخرج وحدها فى عتمة المساء ··

ــ وحشتنى يا مسـعود ·· تريد أن تملأ عينيهـا بوجهه ، تحيط فمها بشاربه الخفيف الأحمر ، لم تسأل عنى منذ مدة ·· فرض أبى على البقاء فى الدار ··

بعـد شهر سأترك القـرية الى البنـدر للدراسة ·· سـأركب القطـار كـل صـباح من البدرشين ·· لم يرد عليها ·· يريد أن يجتذبها هنـاك فى الأحراش بين النخيل على الطريق ·· ولكنه يحبهـا ، يريدها عذراء ، يريدها زوجة له ، أما لأولاده ·

فقط يلمس وجنتيها بشـاربه الخفيف ، بشـفتيه الرقيقتين ·· تريد المزيد ولكن للقرية حرمتها وللأهـل معزتهم ·

فقط الابتسامة تملأ صدريهما ‥ الحب يجتاحهما

ـ سمعت يا مسعود انك تريد بيع أرضك للأغراب

ـ حتى أنت يا محاسن ، توجهين لى العتاب ، أريد الغربة ، الهروب ‥ السفر الى ليبيا ، الى ايطاليا ‥ الى أى مكان ‥ أعود ومعى المال والزاد ‥ ولأجل أن أكتب عليك ماذا ستفعل الشهادة لى ولك ‥ انها أصبحت ورقة ممسوحة ‥ لا أمل فيها ‥ تغير الزمن وتبدل الحال ‥ لم تفهم كلامه ‥ تقول له : أن أباها سيقلق لغيابها ‥

تعود وتقول له برعونة : جاء لى عريس من مصر مثل ابنة خالتى التى تعيش فى مصر ٠

بعد هذه الغيبة ‥ لا تقولى سوى كلمات تافهة ‥ وأنا الملهوف شوقا للقائك ‥ لسماع صوتك ‥ لقربك العفيف البرىء ‥

خمدت الفرحة فى صدره ، قال لها : اذن اتركينى ‥ سأعود بعد قليل للقرية ‥ اتخذ طريقه فى زقاق مظلم تماما ‥ بعيدا عن طريق الآثار فى عينيه غيمة بكاء ‥ فى قلبه حسرة على فتاة أحبها واحترق شوقا الى لقائها ٠

فكر فى هجر الأهل والخلان والقرية الصماء الغبية الوجوه القذرة الدروب ··

عاد منكسر الفؤاد ·· لقاء طال الشوق اليه وأخيرا سمع كلمات طفلة تافهة ، ضحلة المشاعر ·

وعند الترعة ·· وجد زحاما ·· كميات من البشر ·· كأن القرية انقلبت فى لحظة زمن ·· هناك عند الترعة ·· عند بقعة واحدة ممتلئة برائحة الدم والروث ، مكان ما يذبحون أيام الأربعاء والخميس من كل أسبوع ··

وصل الى سمعه بكاء ونحيب نسوة ·

الرجال يخرجون من الترعة ·· جثة امرأة ممزقة الوجه والاثداء ·· ترك الرجال الى ناحية المصلية عند مدخل القرية ·· وصل الى سمعه من كل قادم جديد من بقعة الدم والروث ·· الجثة التى يخرجونها من الترعة فى تلك الليلة ·· جثة « غندورة » بائعة الطعمية ·· ثار لغط كثير واقاويل عديدة حول خروجها من الدار ساعة الفجرية ·· يقولون ان لها عاشقا يقابلها عند حلول الظلام ·

أحس برصاص يدخل جسده ولا يخرج أبدا ·· به

حنين لترك القـرية ٠٠ قـرية الكلاب والثأر ٠٠ قرية الثأر والجنس الذى يتم فى الفجر ٠٠

لم تكن الغندورة هى الوحيدة الآثمة ٠٠ كثيرات غيرها يعرفهن بالاسم وبالملامح التى يغطيها الثـوب الأسـود ٠٠

لم يكن هـو الفتى أو الرجـل الوحيـد فى حيـاة غندورة بائعة الطعمية ، المرأة الفائرة الجسد التى لم يكن يرضيها زوجها الفحل سارق البهائم من القـرى المجاورة ٠

شاهد بعينى لص خائف مرتجف ، عربات بوليس البدرشين والحكمـدار تتقـدم ، تتقافز على الطـريق الترابى فى اتجاه الترعة حيث مكان الجثة ٠٠

يشعر شعور الآثم الخـائن للقـرية ولغنـدورة المرأة الحسناء التى لم يكن لها ذنب سوى انها تمارس الجنس باشتياق واخلاص منضعف وعذاب الجسد ٠٠

وصل الى سمعه فى مكمنه البعيد أحاديث الرجال ونحيب وصراخ النسـوة ونزلت مـن عينيه دمعتـان غزيرتان على الخدين ٠٠ لمس بلسانه طعم الدمـوع ولم يغمض له جفن حتى أذان الفجر ٠

ـ ١٠ ـ

فى الصباح جاءته الحمى لتنقذه من الدمار ..
اخذ يهذى طيلة أيام عديدة حتى احضر أهله الطبيب
من الوحدة القريبة ..

عرف من الذين قاموا بزيارته ان البوليس يحقق
الآن مع سالم وهدان الشقى زوج غندورة .. هو
الوحيد المتهم بقتلها .. والتنكيل بالجثة .

جاءه فى المساء .. وهو فى رحلة النقاهة من
الحمى التى دامت أسبوعا كاملا .. نادر دربالة ..
مهموم كئيب ذليل كعادته .

حكى له نادر حكايته مع فتاة مصر .. زوجة

الشيراتون ·· ابنـة المستشار الـذى يغـالب الآن سكرات الموت من المرض الخبيث ·

يذهب اليهـا وهى زوجتـه الان أمام الله والناس وترفض أن تخرج معـه ·· يذهب بدون موعـد ·· لا يجدها ·· او تسـأله بدون خجل أو حـذر : لما لم يتصل بها قبل قدومه ·

تعامله من علياء ·· من سماء عاليه ·· تعامله كفلاح تعلم فى مصر ولكنه مازال يحمـل داخل نفسه وصدره تقاليد وعادات الفلاحين ·

يطلب من مسـعود مساعدته فى احضارها الى القرية واذلالها واجبـارها أمام المجتمع لأن ترضـخ امامه ·· لم يفهم مسعود فى البداية ·· ولكنه بعـد قليل أدرك مقصد صديقه ، يريد أن يأخـذ حق الزوج من الزوجة قبل دخوله عليها شرعا ·· ثم يطلقها بعد اذلالهـا ··

لم يوافق مسعود ان يدخل فى مشاكل صديقه ، يكفيه الالم والدمار الذى يحيط به ·· لا يريد ان يزج بنفسه داخل آلام ومتاعب الاخرين ·· تكفيه متاعبه مع نفسه ومع التقاليد القديمة التى تحكم القرية ·· تحاكم البشر من قبل بشر آخـرين لا يزيدون عنهم ·· وكأنهم آلهة ·

قال له صديقه نادر كأنه يحثه أن يدخل فى موضوعه الخطير الذى لن يعلم أحد بوقوعه الا بعد حدوثه ··

ستتم الواقعة فى منزل أحد الاصدقاء فى طرف القرية ·· سيدعوها لزيارة أهله ·· سيرجو ، سيتذلل فى الرجاء حتى ترضى مصاحبته ·· ثم يفسدها ·· ويحولها الى امرأة ·· ثم يتركها ·

قال نادر ·· انى أشك فى علاقة بينها وبين صديقها زيزو ، ذلك الفتى الرقيع الموجود بصفة دائمة فى منزلهم · بل وجدت جاكتته الصوف داخل حجرتها ·· هل تصدق انها احضرت له من حجرتها حذاءه الخاص به وهى التى ترفض أن تكلمنى ·· ترفض أن تصاحبنى للخروج ·· لماذا اذن وافقوا على فى البداية ··

اصر مسعود على موقفه ·· لن يقف ابدا موقف الآلهة التى تحاكم البشر ·· مازالت فى مخيلته بالرغم من ابلاله من مرضه ·· غندورة وهى راقدة تحت جسده يصنع بها ما يشاء وهى ذليلة راضية مضطرة للتسليم خوفا من بطشه فى تلك الليلة التى غادرت فيها الدار عندما بدأ النهار يظهر ·

يكفيه ·· انه رآها مقطعة الاوصال داخل شوال

من الخيش ·· لماذا يصنعون ذلك ببشر مثلهم ، ليس لهم الحق ابدا ·· تبا لتلك القرية السخيفة الحمقاء ·· مازال فى داخلهم قرد اسمه الغباء والحمق ·· مازال فى داخلهم مارد حقير يمتص دمهم الطاهر ويحولهم الى أنصاف بشر ·· صرخ مسعود فى وجه صديقه·· لم يفهم نادر ·· خرج غاضبا متأزما من صديقه الصدوق ··

ـ ١١ ـ

انتشرت حقيقة الاشاعة التى بدأت فى القرية مثل ذرات التراب ·· ثم تحولت الى كتلة طين ثم الى صخرة متحجرة ··

مسعود الجارحى سيبيع نصيبه فى أرض الوالد ·· مسعود العايق يبيع أرض الاجداد والآباء بعد طول السنين الى رجل غريب عن القرية يسورها ، يبنى فوقها حظيرة للبهائم ·

وقفت القرية كلها من رجال وشيوخ امام ذلك العاق ·· ولكن العاق ذهب الى البندر وباع نصيبه·· ووثق الأرض وانتهى الأمر ·· وبقى على مسعود ان

يترك القرية فى سلام ·· لا تريده القرية ·· ولا تريد حتى وداعــه ·

رفض الشيخ نبوى والد محاسن مقابلته ·· معك المال ولكن الشرف والواجب تخلى عنك ·· كيف تبيع أرض الوالــد للأغراب ·· أنا كنت أشتريهــا منك اذا اردت · ·ولكن ياعم نبوى لقد اشتراها الغريب بثلاثة اضعاف ما تبيعون به ارضكم ، لا أستطيع أن أبقى فى القرية طول عمرى ·· اعيش فيها بجسدى فقط ·· اما روحى فهى محلقة بعيدا ·· حاقد كاره لكل ما تفعلونه ·· هــل تذكر عمتى ناعسة التى حرمت نفســها من الحياة لان ابنتها الكبيرة ماتت محترقة وهى تشــعل وابور الجــاز لســلق فرخة لاجــل خطيبها ·· بعدها عاشت الاسرة فى سواد وحزن ، حرمت على نفســها وعلى بنتيهــا الاخريين الســعادة ·· عندما تزوجت البنت الثانية ، لم تطلق زغرودة واحدة ، ولـم تشــعل نارا لم تفرقع طلقة نار كعادتنا من ايام الاباء والاجداد ·· تم الفرح وكأنه ميتم ··

خطيبها يوم زواجه من فتاة ثانية ·· ترك عروسه يــوم الصــبحية ليذهب الى قبر فتاته يبكيها دما ·· ينقلونه عن تربتها غير المميزة الا بلوح خشبى ضئيل الى داره مغمى عليه أمام عروسه الجديدة ·

ذهب العاصمة ولم يترك معتقدات وآلام وأحزان القرية ، تعلم ولكن التعليم ما افاده ٠٠ بل جعله انسانا تائها بين القاهرة والقرية ٠

مازلت اذكر غندورة بائعة الطعمية ٠٠ كيف استطاع زوجها ان يمزق اوصال امرأته أم اولاده ٠٠ انه قطعا كان يتلذذ ٠٠ وهو يمزق الجسد الذى انجب له خمسة أولاد اصحاء تملؤهم الحيوية والحبور ، يمزق الجسد الذى رقد بجانبه سنين طويلة ٠٠

لا استطيع أن أبقى طول عمرى فى القرية ٠٠ جاءت الثورة وتعلمنا جميعا ومع هذا لم نفارق معتقدات الأقدمين ٠٠

نحن متوحشون قردة ٠٠ ومع هذا لنا بشرة بيضاء ، ووجوه صبوحة ونرتدى ملابس انيقة ٠٠

لا أستطيع ٠٠ بعت أرضى لمن استطاع أن يدفع أكثر ٠٠ لم أبعها لأجنبى ، ولكن لواحد من أبناء البندر ٠

هل نسيتم أن القرية جزء من مصر ٠٠ كيف تمزقوننى ٠٠ ترموننى كجثة يعافها الطير الكاسر ٠٠ سأترككم وسأترك لكم الأرض والطين والغباء والحمق ٠

سأترك محاسن التى تتشدق بأن خطيبا جاءها من مصر ٠٠ انكم ترفضون بعض الاشياء وتقبلون بعضها مثل المظاهر والغنى والجاه حتى ولو كان خلفه عفونة ٠٠

سأترككم ٠٠ سأدبر أمرى وسأرحل فى يوم قريب الى مكان آخر أجد فيه نفسى ٠

ـ ١٢ ـ

« واد يا قمر هات الجوزة » ٠٠ واشتعلت النــار واجتمعت الصحبة فى عز الظهــر تحت التعريشة فى أرض مسعود الجارحى ٠

جلس نادر دربــالة بعد ما أخــذ حبة بندريكس ، الحبوب التى اصبح يتناولها بكثرة هذه الايام ٠٠ بعد ماخذلته عروس الشيراتون تماما ، بعد وفاة ابيهــا المريض بالسرطان ، أصــبحت كثيـــرة الخــروج مع أصدقاءها من الجنسين ، ترفض صحبته ٠٠ وكأنهــا تستحثه أن يتركها ٠٠

ونمت النيـة فى عقـل نادر دربالة ·· سـيدعو عروسه الى القرية ·· ولن تمـانع ·· فهى تأتى الى القرية لتتفرج على تلك المخلوقات العرجاء وعلى البقر والجواميس والنوارج وأشـجار النخيـل ·· وبيوت الفقر الممسوحة ·· تأتى مثـل سائحة أجنبيـة قادمة للفرجة والمتعة ··

وفى ذلك اليوم ·· سيدخل عليها بالقوة وبالعنف وبالاجبار ·· ثم يتركها بعد ما يأخذ حقه الشرعى ·· سيطلقها بعد ما يلطخ رأسها فى الطين ·· ويأخذ ماله كاملا ·· المال الذى دفعـه كمهر والذى دفعه فى فرح شيراتون الـذى لم يتمتع بـه بل شـعر فيه بالمهـانة والحقارة ·· والعروس ترقص امام اقاربه وجيرانه فى سقارة بخـلاعة شـديدة ·· سيتركها غـارقة فى الوحـل ·

وقام نادر بعد أذان الظهر ·· بعد ما أخـذ حبـة بندريكس أخرى وشرب عشرة حجارة وحده سريعا ·· يأخذ عربته المرسيدس موديل سنة ٧٠ الى القاهرة ·· الى النيـل ، الى عمـارة عالية ·· نوافذها واسـعة مكسوة بشرائح البلاستيك والستائر الرقيقة ·

وقبلت العروس ان تصحبه الى جـولة فى الريف ·· جولة بريئة ·· نزهة قصيرة فى الريف ، تجـوس

بعينيهـا الضيقتين فى وجـوه الفـلاحين البـائسة والفلاحات اللاتى يلفهن السواد يتحركن عند المغـرب جماعات ٠

عنــد العصر ٠٠ أخذها نادر الى بيت شقيقته المهجـور ، وتحت تهـديد السـلاح ، وشـابان من القرية يقفان بالبنادق المسروقة يهددان أى واحد يريد دخول المنزل المهجور ويهددان العروس ان لم ترضخ لعريسـها ، وبكت العـروس واستعطفت وتوسـلت وانحنت تقبل قدميه ٠

ولم يكن هنـاك مفـر ٠٠ تمت العملية بالطريقة البدائية ٠٠ ليعلن لنفسه وللجميع انها عذراء ٠

واتصـل تليفونيا بأخيهـا الشـاب الصغير فى القاهرة ، ليأتى فليأخذ اختـه التى لم تصـبح عذراء وليأخذ المنـديل الملون بـدم اصبح دما أسود يدعـو للقىء ٠٠

لم يشـترك مسـعود الجـارحى فى تلك المأساة ، عافهـا من يوم أن قال له نادر دربالة ، كـره صـديقه وكره نفسه وكره أهل قريته ٠٠

وجـاء الاخ الملهوف على اختـه ولكن كان هناك شروط أخرى ٠٠ المال الذى دفعه فى تلك البهيمة ٠٠

يجب ان يسترده قبل ان تعود العروس الى دارها فى العاصمة حيث العمـارة العـالية التى يجلس امامها بواب نوبى ضخم عند مدخلها ٠٠

والليل يدخل على القرية ٠٠ وصل الأخ ومعـه مظروف بداخله المال ٠٠ وأخذ اخته ٠٠ ومعها ورقـة طلاق كتبها سريعا مأذون القرية ٠

واطلقت عدة اعيرة نـارية فى الهواء والعروس المخذولة تعود مع اخيها فى عربة مؤجرة من القاهرة ٠٠ وعلم اللواء دربالة بأمر ابنه وثار عليه ولكن بعـد أيام قليلة هدأت النفوس وزال سوء التفاهم بين الاب وابنـه ٠

عاد الطبيب نادر دربالة الى الخص يشرب تعميرة آخر الليل ويتناول برشامتين ٠ وقال لأصدقائه يومها انه سيهاجر الى كنـــدا ٠٠ لقد كره القـــرية وكـره القاهرة ٠

ولم يتـكلم مسـعود ٠٠ نكس عينيه الى التراب الطيب ٠

ـ ١٣ ـ

بدأت فى سقارة بشائر الفرح ، ظهرت التعــاليق واللمبات الملونة والشادر المزخرف القماش ٠٠ « فرح فتحى عبد الستار » ٠٠

فى دير المــلاك ٠٠ تتحــرك الاسرة والاقارب فى ملابسهم الزاهية الملونة ، استعدادا لذلك اليوم الموعود ٠٠ يوم الفرح الذى لا يأتى الا نادرا ٠٠ دق جــرس التليفون ٠٠ زوجــة فتحى عبد الستار الارملة العجوز تطلب فتحى لتبلغه أن ابنها عاد من البحر الأحمر وانه ينوى الشر له ٠

لم يهتم فتحى بذلك التقرير ٠٠أكمل ارتداء ملابسه، البدلة البنى والكرافت الملون الفــاخر الذى اشــتراه

من شارع سليمــان ٠٠ وبعــد ما عطــر وجهه بعطر الياسمين ٠٠ قال للعائلة انه مستعد ٠٠ ونزلت العائلة وراءها الاقــارب الى العــربات الواقفــة تنتظــر من الصباح ، العربات المزينة بالزهور والرياحين ٠

بعــد أذان العشــاء ٠٠ ثم عقــد قـــران فتحى عبد الستار على قريبته الفقيرة التى تصلح للاقــامة فى الدار وخدمة العائلة حتى يوم الممات ٠

بعد عقد القران ٠٠ بـدأ الترتيب لسهرة العرس ٠٠ لن يدخل العريس على عروسه فى سقارة ولكن فى منزل العائلة فى دير الملاك ٠٠ اخذوا له حجرة الاولاد، فرشوا الحجرة باثاث جديد ٠٠ يليق بالعروسين ٠

وبدأت ســهرة الرجــال فى الشادر ٠٠ راقصــة مؤجرة من الفيوم ومغنى حسن الصوت يجيد المواويل الحمــراء ٠٠

وبدأ الشراب ونزعت ســدادات زجاجات البيرة وبدأ توزيع الأكواب وأطباق المزة على المدعوين الذين أغلبهم من شباب القرية ٠

يجلس مسعود الجارحى على يمين العريس ، على اليسار يجلس مدرس القرية ٠٠ على بعد يجلس العمدة وباقى الاقارب والاخوة والاحباب ٠

واحضروا عدة المخدر ٠٠ أكثر من برطمان وغابة وقطع الحشيش الغالى الثمن ٠٠ الهبو الأصلى القادم من بلدة الصف المشهورة بذلك الصنف ، ووصل أيضا كبار رجال القرى القريبة : المرازق والحوامدية وأبو صير ومعهم مخدرهم الممتاز لتحية العريس الرائع فى جلبابه الصوفى٠٠ترك العريس البدلة البنى الجديدة بعد عقد القران ٠٠ ليرتدى الجلباب الريفى الذى يصلح لهذه السهرة الخاصة ٠٠ وأطلق فى الجو عدة أعيرة نارية ٠٠ وتبارى الرجال من جميع القرى فى تحية العريس باطلاق النار فى الهواء ٠٠ وسمع من بعيد نباح كلاب ٠

وفى الوقت المناسب والمغنى يملأ القرية بصوته الخشن والراقصة الريفية تلعلع فى ثوبها الضيق الأحمر المشغول بالترتر وخرج النجف ٠٠ ظهرت زجاجات الويسكى « ليلة ولا كل ليلة » قال العمدة للعريس ٠٠ وقام العريس من النشوة ليرقص أمام المدعوين بعصا سميكة القطر ٠٠ وصفق المدعوون للعريس وهو يراقص الراقصة ٠٠

وضحك الشباب وصفق المغنى ٠٠

بعد عودة العريس الى مجلسه وسط صفوة الأصدقاء والشباب ٠٠ اختفت النسوة وراء السواتر

والنوافذ ٠٠ بعد استمتاعهن بذلك المشهد الرائع ٠٠ العروس سعيدة فى قرارة نفسها لاختيار ذلك العريس الشاب الرائع الشكل الوفير الكسب لها شخصيا من دون بنات سقارة ٠

ودخل الليل ٠٠ وباتت السماء كأنها طبق فضة يلمع على سطحه النجوم المرحة ٠٠

ودخل الشادر شاب متجهم ٠٠ لم يلحظه سوى فتحى عبد الستار ٠٠ وأوجس خيفة من دخول ذلك الشاب فى ذلك الوقت ٠٠ ودق قلبه دقات عنيفة وقام من مجلسه لتحية القادم الجديد الذى تربى معه فى حوارى وأزقة دير الملاك ، كانا معا حتى الاعدادية ٠٠ لم تفرق بينهما الأيام ٠٠

الصديق القديم ابن الارملة العجوز الذى تزوجها بعقد عرفى فى ليلة معبقة بالمخدر والشراب ٠٠ وذلك فقط لاجل الصديق العزيز ٠٠

وفى لحظة قصيرة من عمر الزمان ، اطلق الصديق القادم من العاصمة على صديقه العريس ثلاث طلقات فى صدره ٠٠ قبل ان يتقدم العريس لتحية صديقه ٠

وقع مغشيا عليه ٠٠ وانقلب العرس الى مأتم

وصـــياح وبكاء ·· واطفئت الانــوار واختفى المغنى
وتلاشت الراقصة ·· ونقــل العــريس الى مستشفى
البدرشين ولكنــه مات قبــل ان يتقــدم منــه الطبيب
النوبتجى ··

★ ★ ★

في الصبـاح ·· اخذ مسعود حاجاته القليـــلة
فى حقيبة جلدية صغيرة ·· أبل أمه واخوته الصغار
·· ومسح من عينيه دمعتين وهو يمر على دار محاسن
·· يودع الدار ·· يودع القــرية ، النخيل ، الهــرم
القــديم البــاقى الخــالد على مــر العصور ·· الى
المجهــول ··

مؤلفات الاستاذ اسماعيل ولى الدين

حمام الملاطيلى	الطبعة الأولى ١٩٧١	الطبعة الرابعة ١٩٧٨
الاقمـــــــــــــــر	الطبعة الأولى ١٩٧٢	الطبعة الرابعة ١٩٧٩
حمص أخضــــر	الطبعة الأولى ١٩٧٣	الطبعة الثانية ١٩٧٦
تجربة حب	الطبعة الأولى ١٩٧٤	الطبعة الثانية ١٩٧٧
حب تحت الحراسة	الطبعة الأولى ١٩٧٤	الطبعة الثانية ١٩٧٧
طائر اسمه الحب	الطبعة الأولى ١٩٧٦	الطبعة الثانية ١٩٨٠
الســلخانة	الطبعة الأولى ١٩٧٦	الطبعة الثانية ١٩٧٨
دار التفـــــاح	الطبعة الأولى ١٩٧٧	الطبعة الثانية ١٩٨٠
الموت خلف الفنــــدق	الطبعة الأولى ١٩٧٧	الطبعة الثانية ١٩٨٠
الحب تحت الأشــجار	الطبعة الأولى ١٩٧٨	
رحلة الشقاء والحب	الطبعة الأولى ١٩٧٨	
الباطنيـــــــــــة	الطبعة الأولى ١٩٧٩	
العاشـــــقان	الطبعة الأولى ١٩٨٠	
احـــزان ســـقارة	الطبعة الأولى ١٩٨٠	
زقاق العســــكر	الطبعة الأولى ١٩٨٠	
منزل العائلة المسمومة	الطبعة الأولى ١٩٨٠	

رقم الايداع بدار الكتب ٢٥٢١/ ٨٠
الترقيم الدولى ٥ ـ ٥٦ ـ ٧٣١٧ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

الثمن ٥٠ قرشا



دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (القاهرة)